في محاضرة حول الثقافتين الإسلامية والغربية في تصور الكاتب الجزائري مالك بن نبي

الدكتور عمار الطالبي يؤكد:

الحضارة الإسلامية محورها الحق والأخلاق والغربية طابعها المادة والجمال

«ضمن الموسم الثقافي لادارة الثقافة والفنون التابعة لوزارة الاعلام والثقافة القى الدكتور عمار الطالبي استاذ ورئيس قسم الفلسفة بجامعة قطر محاضرة مساء امس بعنوان الثقافة العربية الاسلامية والثقافة الغربية في تصور مالك بن نبي وذلك بفندق شيراتون الخليج، وكان بين الحضور عدد من اصحاب السعادة السفراء واعضاء السلك الدبلوماسي المعتمدين لدي الدولة والدكتور ابراهيم صالح النعيمي مدير جامعة قطر وعدد من اعضاء هيئة التدريس والمثقفين.»

وفي البداية رحب السيد موسى زينل مساعد وكيل وزارة الاعلام والثقافة بالحضور وبالمحاضر وقدم تعريفا موجزا عن الدكتور عمار الطالبي والموضوع الذي يتحدث حوله وبدوره رحب الدكتور عمار الطالبي بالحضور وقال ان الغرض من هذه المحاضرة بيان تصور مالك بن نبي الكاتب الجزائري (١٩٠٥ — ١٩٧٣) وهذا التصور يدخل ضمن فلسفة مالك بن نبي في التاريخ وفلسفته في الحضارة. واضاف قائلا: يرى مالك بن نبي ان الانسان عندما يخلو الى وحدته، ويتوحد في عزلته ينتابه شعور بما يسميه «بالفراغ الكوني» ويتوقف تحديد نوع ثقافته، وطابع حضارته، على طريقته في ملء هذا الفراغ الكوني الذي يشعر به، وتحديد الثقافة هو «تحديد الخصائص الداخلية والخارجية التي يتوقف عليها دوره في التاريخ» ويذهب الى ان هناك طريقتين في ملء الفراغ الكوني:

الاول ينظر الانسان فيها حول قدميه الى الارض، وتؤدي به هذه النظرة الى شغل الفراغ «بالاشياء»، والطريقة الثانية يرفع الانسان فيها بصره الى السماء وتؤدي به هذه النظرة الى ان يملأ او يشغل الفراغ الكوني بالافكار، وتكون نظرته هذه نظرة متسائلة مستفسرة باحثة دوما عن الحقيقة.

ويؤدي اختلاف هذين اللونين من النظر الى ابداع نموذجين من الثقافة:

١ — ثقافة يطلق عليها مالك بن نبي بانها ثقافة هيمنة، ذات جذور فنية (تقنية).

٢ — ثقافة يسميها ثقافة حضارية ذات جذور اخلاقية ميتافيزيقية وتتجلى الظاهرة الدينية في هذا اللون من توجه نظرة الانسان الى السماء، وفيها تبدو سمات الرسول صاحب الرسالة اي سمات الرجل الذي لديه افكار او مبادىء يريد ان يبلغها للناس.

يلاحظ مالك بن نبي ان اوروبا التي انجبت كثيرا من علماء الرجال حرمت من الظاهرة الدينية في مستوى الرسل عليهم الصلاة والسلام، وكان طبيعة الرجل الاوروبي الممتلئة بشعور فياض بادميته لم تترك فيه مكانا للعنصر الديني. والعكس بالنسبة للانسان السامي فهو يبدو ان تكوينه مؤهل للافكار الميتافيزيقية بحيث لايترك العنصر الديني فيه إلا مجالا ضيقا للمشاغل الارضية، ويأتي الانسان الاغريقي فيقع بين السامي، وبين الرجل الاوروبي الشمالي فيملأ عالمه بالامور الشكلية، الا انه يشغل عزلته بالجماليات التي ينتهي امرها بالتوحيد بينها وبين الخير، كما اشار الى ذلك تولستوي في تاملاته العميقة في الفن.

نموذجان من الحضارة

ويرى ان هذا يوجد في مراحل التاريخ المختلفة، وهو مايؤدي الى نشوء نموذجين من الحضارة: حضارة ذات قيم اخلاقية، وحضارة ذات قيم جمالية تقنية.

وعندما تبلغ الحضارة اوجها فانها تدور فيها الاشياء حول الفكرة احيانا، واخرى تدور فيها الافكار حول الاشياء ويبرهن مالك بن نبي على مايذهب اليه بان العقل الانساني يعبر عن هذه الظاهرة بوضوح حينما يفصح عن نفسه بحرية وتلقائية بما يتجاوب مباشرة مع جذور ثقافته، ويرى ان الادب الشعبي هو الذي يمتاز بهذه الميزات، ويبدو له ان القصة هي اقرب الالوان الادبية في هذا المجال واكثرها افصاحا عن هذه الحقيقة.

الفكر الغربي والفكر الإسلامي

ثم ناقش مالك بن نبي ظاهرة اخرى في التفكير الغربي، من خلال مؤتمر علم الاجتماع الذي انعقد بفارنا وهي ظاهرة استعمال الوقت المتصل، وتصوره، مقارنة باستعمال الوقت في العالم الثالث، وانتهى مالك بن نبي الى القول بانه لايستغرب ان تكون اوروبا الارض التي انتجت وضعية اوجست كنت ومادية كارل ماركس، وان تكون ايضا الارض المختارة لفكرة الكم، وكان الفكر الغربي يدور اساسا حول ما يتعلق بالوزن والكم واذا انحرف وتطرف فانه ينزع حتما الى المادية سواء في شكلها البورجوازي في مجتمع الاستهلاك او في شكلها الجدلي في المجتمع السوفييتي في ذلك الوقت قبل انهياره الاخير.

وكذلك الفكر الاسلامي اذا نحا نحو افوله، وانحرف عن اصوله او جذوره الاخلاقية فانه ياخذ طريقه الى التصوف والى عدم الدقة وتغييب العقل، والميل الى الامور الغامضة المشوشة، والى التقليد الاعمى والاعجاب بالاشياء، اشياء الغرب، وهذا كله يعبر عن انحراف العالم الاسلامي عن مداره الاصلي الذي كان

تابع المحاضرة:
إبراهيم إسماعيل
تصوير: أحمد جودة

حول فكرة حب الخير وكراهية الشر، وهو الدور الذي رسمه القرآن الكريم لوجهة الفكر الاسلامي.

الذوق الجمالي والمبدأ الأخلاقي

من اهم الافكار الجديدة التي انتهى اليها مالك بن نبي في تميز الثقافة الاسلامية عن الثقافة الغربية تصوره للعلاقة بين المبدأ الاخلاقي والذوق الجمالي في كلتا الحضارتين الاسلامية والغربية، فهو يرى ان الحضارة تتجه وتتغير طبقا لعلاقة المبدأ الاخلاقي بالذوق الجمالي في المعادلة الحضارية، اي ان الحضارة تتجه تبعا لترتيب هذين العنصرين في المعادلة التي وضعتها، وتتمثل في هذه الصورة:

مبدأ اخلاقي + ذوق جمالي = اتجاه حضارة

وتبعا لذلك فانه ينتج عن طبيعة هذه العلاقة نموذجان من المجتمعات: «نموذج يقوم نشاطه في اساسه على الدوافع الجمالية، وآخر يقوم فيه النشاط على الدوافع الاخلاقية».

ففي فن التصوير مثلا يرى ان المجتمع الغربي حين يعني بتصوير امراة عارية فذلك بسبب الدافع الجمالي، اما المجتمع الاسلامي فان الرادع الاخلاقي يمنعه من ذلك، وكذلك تطور الملابس ادى في الغرب الى ابراز جمال المراة الى الشارع، وادى تطورها في المجتمع الاسلامي الى اخفاء جمالها عن الشارع.

وليس معنى هذا فيما يرى مالك بن نبي، ان الثقافة الاسلامية تفتقد عنصر الجمال او تنفيه من ساحتها، وانما تضعه في مكان آخر من درجات سلم القيم.

والواقع ان كل ثقافة تتضمن في ذاتها عنصر «الجمال» وعنصر الحقيقة، غير ان عبقرية احدى الحضارتين تجعل محورها «الجمال» بينما الاخرى تجعله «الحقيقة» وهذا يعود إلى أصول بعيدة في التاريخ، فالثقافة الغربية قد ورثت ذوق الجمال من التراث اليوناني الروماني، اما الثقافة الاسلامية فقد ورثت الشغف «بالحقيقة» من بين مميزات الفكر السامي، فرواد الثقافة الغربية كانوا رواد فن ابتداء من فيدياس Phidias إلى ميخائيل انجل، اما قادة الثقافة الاخرى فهم انبياء ورسل من ابراهيم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام جميعا، لذلك فانه ليس من لغو القول فيما يقول مالك بن نبي ان نجد المؤرخين للنهضة الاوروبية يصفونها بانها «عودة إلى الحضارة اليونانية الرومانية واحياء لها».

وهذا الاختلاف في الاصول الغابرة في التاريخ يجعل الثقافة تختلف في اتجاهها مما يؤدى الى التاثير فيما

د. عمار الطالبي

ينتج الفكر في كل واحدة من هاتين الثقافتين، فهذه العبقرية الاوروبية، انتجت مناهج ادبية كتبت على راياتها اسماء لامعة عبر الزمن ابتداء من اسشيل Eschyle وسوفوكل Sophocle الى راسين وبلزاك ودستويفسكي الى برناردشو، ولم تكن هذه العبقرية صادرة عن وحي التوراة او الانجيل او الفرقان.

وعلى العكس من هذا فان الادب العربي الاسلامي عموما لم ينتج فيما ابدع لا التراجيديا ولا القصة ولم تظهر محاولاته في هذا المجال الا في القرن العشرين تقريبا.

واستخلص مالك بن نبي من هذا كله ان كل ثقافة تتضمن علاقة «مبدأ اخلاقي — ذوق جمالي» بحيث تكون تلك العلاقة ذات دلالة معينة، على نوع عبقرية مجتمع معين، وليست هذه العلاقة قاصرة على طبع الناحية الادبية بطابع خاص فحسب، وانما تحدد اتجاهها في التاريخ ايضا.

ويرى اننا نستطيع على سبيل المثال ان نفسر ظاهرة «الاستعمار الغربي» باعتبارها «ظاهرة ثقافية» بانها تدل على ان الثقافة الغربية قد حددت علاقة «مبدأ اخلاقي — ذوق جمالي» بصفة معينة، وذلك انها قدمت العنصر الثاني على الاول في ترتيب القيم، واثر هذا الترتيب في علاقة الانسان الاوروبي بالانسانية، فكل ثقافة تتسم بما يسميه مالك بن نبي «ثقافة سيطرة» او «ثقافة امبراطورية» هي في اساسها ثقافة تتجه فيها القيم الجمالية وتنمو على حساب القيم الاخلاقية.

أولويات كل حضارة

وهكذا يرى انه من الممكن ان نتابع هذه الاعتبارات الى ابعد مدى، فنشاهد ان الثقافة التي تعطي الاولوية لذوق الجمال «تغذي حضارة ينتهي امرها إلى فضيحة حمراء» يقود جنونها رجل مثل نيرون او امراة مثل مسالين Messaline وذلك لأنها تسيطر عليها دوافع الانوثة.

كما يلاحظ مالك بن نبي من جهة اخرى ان الثقافة التي تعطي الاولوية للمبدأ الاخلاقي تكون حضارة يؤول امرها الى «التحجر والجمود» وتنتهي الى فضيحة صامتة سوداء، تتيه في مجاهل تصوف متقهقر، يقود جنونه شيوخ الطرق» ولهذه الأولوية آثار كبيرة لا مجال هنا لحصرها، وإنما أضيف إلى ذلك اثر واضح يتمثل في تركيب الاسرة، التي اما ان يسودها الرجل، واما ان تسودها المراة، وكذلك الادب فما ان يكون اتجاهه «الفن للفن» اي اولوية ذوق الجمال، واما ان يكون الالتزام اي الاولوية للمبدأ الخلقي.

وفي السياسة اما ان تكون ديمقراطية تكون الاولوية فيها لحرية الفرد «بدافع جمالي» أو ديمقراطية هدفها سعادة المجتمع «بدافع اخلاقي».

واذا اخذت الثقافة التي تعطي الاولوية للجمال في الضعف، او بدت عليها اعراض مرضية فان ظاهرة الفن يصيبها نوع من التزييف، ويضرب مالك بن نبي مثلا لذلك بمعرض الصور الزيتية الذي اقيم بلوس انجلس سنة ١٩٥٧، وقد فازت فيه لوحة عنوانها مقهى لاوس Cofe Laos وهي لوحة رسمها ببغاء اعور، كان صاحبه قد تركه يتخبط في الالوان بجوار قماشة الرسم.

وصرح صاحب اللوحة بهذه الخدعة بعد نيل الجائزة، وهذا الخداع في الفن وان كان — فيما يقول مالك بن نبي يرمز إلى عصر السريالية فانه اصبح الآن ممكنا لان الاصول الجمالية التي شوهها المذهب السريالي قد حرف مقاييس الجمال لدى اللجنة المشرفة على المسابقة، ويرى ان الادب الوجودي يمثل ازمة في الثقافة الغربية، فهو في الواقع — وربما لا يشعر من يمثله — محاولة تدارك لفقدان لمبررات، او هو على الاقل تعبير عن هذا الفقدان، وهذه النزعة قراها في مؤلفات جان بول سارتر اكثر من غيره من الادباء الذين يمثلون الوجودية، فسارتر يعبر بالسنة ابطاله عن هذه الحيرة، كما يبدو ذلك في كتابه «الغثيان» حيث يقول احد ابطاله: «تاخذني الرغبة للسفر الى مكان أجد فيه مكاني، ولكني لم أجد مكانا في العالم».

واذا اردنا ان نلخص رؤية مالك بن نبي للحضارة الاسلامية وميزتها فاننا نلجا الى ما كتبه في كتابه «فكرة الافريقية — الآسيوية» في ضوء مؤتمر باندونج حيث يقول: «ان الفكرة الغربية التي تحكم العالم الآن، قد ورثت عن اصولها الهلينية ذوقا مطبوعا بطابع الجمال، والفكرة الاسلامية قد قامت على محور المبدأ الاخلاقي، فالحقيقة هنا تعرف «بالحق» وتعرف هناك «بالجمال» وكلتا الفكرتين تكمل الاخرى، ولكن حينما يلزم التضحية بعنصر منهما، فان المبدأ الاسلامي لا يتردد في أن يضحي بالجمال من أجل الحق، وهذا الاختيار لا يقوم على اساس عقلي، بل بتاثير الآلية النفسية والدوافع الداخلية الكامنة في الطبيعة المسلمة، وبتاثير ارادة اخلاقية سجلت طابعها على انتاج العبقرية الاسلامية كله.